الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي البحث العلمي

جامعة الجيلالي بونعامة (خميس مليانة) أستاذ المادة .(بن فريحة قدور)

تخصص علوم إجتماعية

دروس ومحاضرات خاصة بوحدة (تاريخ الجزائر الثقافي) (سنة أولى جذع مشترك)

المحاضرة الاولى

كانت حركة الثقافة والتعليم في الجزائر قبل دخول العثمانيين تركز على ثلاثة حواضر رئيسية وهي مدينة تلمسان في الغرب الجزائري ومدينة بجاية ، ومدينة قسنطينة في الشرق الجزائري، وكانت هذه الحواضر تعد بحق مراكز للتعليم والثقافة ، فقد ازدهرت فيها العلوم والاداب والفنون لعدة قرون ، كما اشتهرت بها اسر علمية توارثت العلم والمعرفة.

المؤثرات في الحياة الثقافية . بالرغم من أن القرن (التاسع هجري / والخامس ملادي) كان عهد انتاج ثقافي وفير ، فإنه على المستوى السياسي كان عهد إضطراب وتدهور وذلك على الحدود السياسية في هذا القرن لم تكن مضبوطة وثابتة، وكلمة الجزائر عندئذ لم تكن تطلق الا على مدينة ساحلية صغيرة قليلة الأهمية ولم تكن تعني بأي حال (القطر الجزائري)المعروف الان فهذا المفهوم لكلمة الجزائر لم يصبح معروفا إلا منذ القرن العاشر هجري و السادس عشر ميلادي أي أثناء الحكم العثماني .

وتثبت خريطة القرن التاسع هجري ان المغرب العربي والاضرحة الى نتيجتين خطيرتين اولاهما تبسيط المعرفة وثانيهما غلق باب الاجتهاد وذلك ان نقل العلوم الى الزوايا قد ادى الى الاكتفاء بالحد الادنى منه بطريقة جافة واصبحت الزاوية بذلك تنافس المدرسة والجامع (الجامعة)في نشر التعليم وكسب الانصار وبدل من ان يلتف الناس حول العلماء المتنورين في المدارس والمساجد اصبحوا يلتفون في زاوية حول شيخ تغلب عليه الخرافة وعلى احواله الزهد وهكذا تدهور مستوى التعليم وهذه المنافسة بين العالم والمرابط او الجامع و الزاوية قد اجبرت ايضا علماء المساجد والمدارس على تبسيط ارائهم و طرقهم في التعليم ومحتويات دروسهم حتى لا يفر الطلبة الى الزوايا والمرابطين فالتنافس كان من اجل البحث عن الاتباع وضمان لقمة العيش وليس من اجل رفع مستوى التعليم الذي يقوم على هذه الاسس ولا يترك مجالا للاجتهاد وحرية الراي والبحث واعطاء تفسيرات حرة وفلسفية لقضايا الدين والعصر. وهكذا اكتفى العلماء بالاقتصار على الفروع دون الاصول ويعتبر محمد بن يوسف السنوسي وعبد الرحمان الثعالبي من اكبر من اكبر زهاد وعلماء القرن التاسع للهجري فقد جمع كل منهما بين الانتاج العلمي والسلوك الصوفي وكان لهما تاثير كبير على معاصريهما وعلى اللاحقين منهم ورغم شهرة كليهما فان كلا منهما كان

يحث على العزلة والهروب من الدنيا وعلومها والاهتمام بعلوم الاخرة والتفرغ لها والصبر على ما كانوا يجدونه من ظلم السلطان فكان السنوسي ينصح معاصريه بالعزلة ويكون جليس بيته ويبكي على نفسه كان تحت نفوذ ثلاث دول رئيسية هي (المرينية بفاس والزيانية بتلمسان والحفصية بتونس وذلك ان جزءا كبيرا من الشرق الجزائري اليوم في ذلك قسنطينة وعنابة وبجاية وبسكرة وتقرت . وكان تحت الحفصي وكانت هناك منافسة وطموح بين المرينيين والزيانيين . ويضاف الى هذا التطاحن الإقليمي وتطاحن عائلي مرير وطويل فكل اسر ة من الأسر المذكورة (المرينية الزيانية والحفصية)كانت في خصومة داخلية على الملك فكثرت الحروب .

ووسط هذه الصورة المضطربة للحياة السياسية كانت هناك بعض المدن تنمو بعدد سكانها وتشع بمدارسها ومساجدها ثقافة يتغذى منها المجتمع روحيا وعقليا ومن هذه المدن نذكر (تلمسان وقسنطينة وبجاية ومازونة ووهران ومدينة الجزائر وعنابة . ففي كل مدينة من هذه المدن عائلات اشتهرت بالعلم والتاليف والدرس والزهد والتصوف، ومن هذه العائلات عائلة (المقري والعقباني) في تلمسان وعائلة (ابن باديس والقنفذ) في قسنطينة وعرفت مازونة بزهادها وعلمائها ابرزهم (عبد الر حمان الثعالبي وتلميذه احمد ابن عبد الله الجزائري) . ورغم هذه الاحصائيات فان كل مدينة من المدن المذكورة كانت تحتوي على عدد من المساجد والمدارس والمؤسسات العامة وتثبت بعض الاحصائيات ان عدد مدارس تلمسان في نهاية القرن التاسع هجري خمسة والمساجد حوالي ستون مسجدا وكان التعليم بجميع مستوياته منتشرا في المدارس والمساجد والزوايا التي اخذت تنتشر ولقد برزت العديد من المؤثرات على الثقافة في الجزائر أبرزها

أ/ هجرة سكان الأندلس وأثرهم على الحياة الثقافية لقد كان لهجرة سكان الاندلس اثر كبير على المجتمع الجزائري من جميع النواحي ولعل القرن(التاسع هجري) شهد اكبر موجة من موجات هذه الهجرة ففيه اشتدت وطأة الاسبان على بقايا المسلمين في الاندلس فتدفقت امواج المهاجرين على شواطئ المغرب العربي ينشدون الحماية والأمن ويبحثون في نفس الوقت العودة والثار وكانت طبقة المهاجرين تختلف ثروة وثقافة وجاها ففيهم ابناء الشعب البسطاء واحفاد الملوك وفيهم اصحاب الصنائع وهكذا كانت الماساة الانسانية في الاندلس خيرا على مجتمع المغرب العربي الاسلامي

ب/ ظهور عقيدة الزوايا والمرابطين من ابرز ماتميز به القرن التاسع ظهور عقيدة المرابط وانتشار الزوايا وافتتاح عهد التصوف وقد ظهر التصوف في المشرق بقرون ووجد طريقة الى المغرب العربي ولكن حدث هناك مبالغة مثلا ابتداع الحضرة والالتفاف حول زاوية ذلك الشيخ او ضريحه كل هذه الامور تكون وليدة القرن التاسع للهجري ، وقد جاء العهد العثماني ليزيدها حماية وتعهدا .

وقد ادت المبالغة في الإعتقاد في الشيخ وانتشار الزوايا

المحاضرة الثانية

الامراء والعلماء لقد اصبح الامراء خلال القرن التاسع هجري يسخرون العلماء لاغراضهم الخاصة الا القليل منهم ولا شك ان الونشريسي لم يكن يخشى من احد لذلك لم يكن له مع امراء وقته اتصال كبير رغم الحاحهم عليه ودعوتهم له ولعل هذا الموقف التصلب عن امراء وقته هو الذي ادى الى حصول ما حصل له مع سلطان تلمسان في وقته ولقد تعرض لمضايقات كثيرة ومن اجل ذلك توجه الى فاس مهاجرا باسرته وعلمه فخسرته بلاده وقومه

ولعل الابتعاد عن الحكام على حد تعبير محمد السنوسي كان شيمة كبار العلماء ذلك ان الحاكم يريد تسخير العلماء لخدمته والدعاية لشخصه ولعل من اسباب انعزال بعض العلماء والتجائهم الى الزهد والتصوف هو ضغط السلاطين عليهم و السكوت عن المنكر والفساد فقد وجدنا عالما مثل الثعالبي درس احوال العصر وتنقل بين عواصم العالم الاسلامي ومع ذلك كان امام عدة حلول

ان يعلن الثورة على الاوضاع كما فعل المغيلي -
ان يهاجر من بلاده كما فعل المشدالي والونشريسي -
ان يصبح مداحا للامراء كما فعل الحوضي والتنسي وابن القنفذ -
ان يعتزل الناس -
ونحن نجده قد اختار الحل الاخير و قد اشاد بالذين اختارو هذا الطريق منهم السنوسي وعبد الله الجزائري)

ج/ علماء الجزائر لم يكن العلماء في تلك الفترة يشكون من ظلم الحكام فقط بل كانوا يشكون من ظلم الناس ايضا فقد اشتهر الجزائريون منذ القديم بانهم لا يقيمون وزن

حين نتكلم عن هذا الجانب نورد الملاحظات التالية

أ / ان التعليم بجميع مستوياته كان منتشرا في المدارس والمساجد وفي الزوايا التي اخذت تنتشر ولقد غلبت الروح النظرية على هذا التعليم الذي لم يخرج عن علوم الدين واللغة والاهتمام بالفروع الفقهية على مذهب الامام مالك

ب/ ظهرت في هذه الفترة عقيدة المرابط وانتشار الزوايا وافتتاح عهد التصوف العملي وهذه الظاهرة سوف نجدها تزداد انتشارا في القرون الثلاثة اللاحقة للعهد العثماني وظهرت المبالغة في ابتداع الحضرة وانتشار الاضرحة وهو ما كان له اولها تبسيط المعرفة وغلق باب الاجتهاد والاكتفاء بالحد الادنى من التعليم فاصبحت الزوايا تنافس الجامع والمدرسة بل تفوقت عليهما

هذا الانحراف وانتشار التصوف العملي والغلو في نسبة الكرامات للاشياخ جعل طائفة من اهل العلم تنتفض ضد هذه الحالة وتدعوا الى الرجوع الى التصوف الصحيح او التصوف السلفي بالاضافة الى هذا فان (الحكام و احوال العصر وموقف الناس من العلماء مجتمعة) هي التي جعلت عددا من علماء الجزائر خلال القرا التاسع للهجري يهاجرون منها ويكفي ان نلقي نظرة ا لعلمائهم وهي ظاهرة كانت اقصى على هؤلاء العلماء من ظلم الحكام بل لعلها هي التي اجبرت عددا كبيرا منهم على الهجرة والعيش خارج الجزائر وقد لاحظ السنوسي ذلك فقارن بين عناية اهل المشرق واهل المغرب بعلمائها ووجد ان المشارقة اكثر عناية ورعاية لعلمائهم من اهل الغرب وخاصة اهل الجزائر

الاوضاع الثقافية في الجزائر عموما

على تراجم بعضهم مثل الضوء اللامع (للسخاوي) والبستان (لابن النديم) لندرك مدى الخسارة التي منيت بها الثقافة الاسلامية في الجزائر بهجرة علمائها .

المحاضرة الثالثة

التاريخ والسير

لقد ترك الجزائريون اعمالا هامة في التاريخ خلال القرن الخامس عشر مثل التنسي الذي اشتهر بدراسة الحديث والفقه والادب ومثل القنفذ الذي تغلبت عليه العلوم كالحساب والفلك ومثل ايضا الثعالبي الذي عرف بالزهد وعلوم الدين . فمثلا لقد كتب محمد بن مرزوق (المسند الصحيح) في مآثر مولانا ابي الحسن لان هذا الاخير دافع عن الاسلام والعلم وفي مقدمة الكتاب كتب عن الخلافة وراي العلماء فيها ووجوب طاعة السلطان وتفضيل الحكام على المفتيين والائمة وهو راي خطير . كما نجد احد الكتاب منهم عمر ابن احمد الجزائري الذي جعل بطله احد رجال الزهد والتصوف وهو احمد بن عروس وسمى كتابه (ابتسام العروس) وقد ركز على تيار التصوف ومن قسنطينة نجد ابن باديس الذي وضع كتابه السير لاحمد بن فارس الرازي فقرر ان يشرحه وقد تناول فيه شرح سيرة النبي وتاريخ الصحابة . بالاضافة الى هذا نجد ابن القنفذ الذي الف (الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية) وقد اهدى هذا الكتاب الى السلطان القسنطيني وقد كان ابن القنفذ في خدمة الدولة الحفصية وفي تلك الفترة قامت ثورة في قسنطينة ضد هذا السلطان وخشي ابن القنفذ من غضب السلطان على اهلها لذا كتب هذا الكتاب (لقد كان ابن القنفذ قاضيا وعزله حاكم قسنطينة) لكن السلطان قد اعاده الى وظيفته فكان كتاب الفارسية عبارة عن عرفان وعربون ولاء .

لقد كتب ابن القنفذ الوفيات ذلك ان اهتمامه بعلوم الحديث ورجاله هو الذي ادى به الى العناية بتسجيل وفيات علماء الحديث وقد ابتدا بوفاة الرسول ﷺ وهذا الكتاب يخبرنا عن رجال بجاية وقسنطينة وتلمسان وكذلك اخبار المغرب وغيرهم .

ايضا كتب عبد الرحمان الثعالبي كتاب (الانوار في ايات النبي المختار) تحدث فيها عن سيرته وعن غزواته وسير الصحابة / واخر ذوي الالباب وهو العمل بالزهد والتصوف واتباع جملة من الادعية والاعذار

اما المؤرخ الذي فرض اسمه على تراث القرن التاسع هجري هو محمد بن عبد الله التنسي وكان موضوعه على تاريخ بني زيان الذين تداولو الحكم على تلمسان وقد ذكر ملوكهم وقد كتب كتاب عنوانه (الدر) وفي هذا الكتاب قام بمدح السلطان وعبر فيه عن شرف بني زيان بالربط بين نسلهم ونسل الامام على والسيدة فاطمة الزهراء وفي الكتاب تناول ايضا سلوك الملوك وفضائلهم وشروط الامارة / وفي الفصل الاخير مقالة في الاخلاق و الفلسفة.

لقد افتتح القنفذ في القرن التاسع للهجرى بكتابه (الفارسية) وختمه التنسي بكتابه (نظم الدر) فكان الاول في شرق الجزائر واهدى كتابه الى فارس الحفصي والثاني في غربها واهدى كتابه الى المتوكل الزياني فكان ابن القنفذ مؤرخ الدولة الحفصية وكان التنسي مؤرخ الدولة الزيانية / وكلا الدولتين لم تكن في اوج قوة ولم يكن اميرها اقوى سلطان ولا حكمه اعدل ولكن المؤرخين كانا كالشعراء يمدحان للمصلحة الشخصية فكان دافعهما العاطفة وليس العقل ولو كانا صاحبي حكمة وتبصر لاستنكرا اعمال الحكام ولقاوما فساد المجتمع .

اما من تلاميذ التنسي (ابن مصعد) الذي وضع كتاب (النجم الثاقب) يتحدث فيه عن اولياء الله كان متاثر بالتصوف والانعزال بالاضافة الى هذا له قصيدة في مدح الرسول ﷺ وفي كتابه النجم الثاقب جمع العديد من اسماء الاولياء ورتب اسماءهم على حروف المعجم وفي الكتاب يذكر مآثرهم ومن بين الاسماء (الميلي) و (المكناسي) الذي كان من اولياء الله في البلاد الشلفية

ومن أبرز المؤلفين ايضا (سلامة البسكري) الذي كان اهتمامه بالتصوف الا انه كتب في التاريخ حيث تناول فيه فتح افريقيا من قبل المسلمين ويتحدث ايضا في هذا الكتاب عمن دخل افريقيا ايضا من الامراء و الاولياء والعلماء وقد رتبه في ثلاث ابواب الاول فيمن دخل افريقيا من الصحابة والتابعين والباب الثاني فيمن دخل افريقية من الامراء والباب الثالث فيمن دخل افريقيا من الامراء والعلماء .

الادب واللغة لقد اختلط الادب والشعر في الجزائر بالتاريخ وقد اختلط بالتصوف والمدائح النبوية وقد كان للاندلس تاثير على الحياة الاجتماعية والثقافية .

لقد كان هناك شاعران بارزان احدهما في تلمسان وهو (الحوضي) والثاني في تونس وهو (محمد الخلوف) الاول شاعر بلاط الزيانيين والثاني شاعر بلاط الحفصيين لكن كليهما اشتهر بشعر المدح والشعر الديني / فالحوضي اهتم بالغزل والرثاء والتصوف اما الخلوف

فقد اشتهر بمديح النبي ﷺ بالاضافة الى المدح السياسي وقد كان ملازما للسلطان الحفصي (عثمان) مادحا له ومشيدا باثاره

كذلك كتب الحوضي كتب في الرثاء مثل قصيدته في رثاء شيخه (السنوسي) وفي شعره في المديح النبوي فالحوضي كان شاعر القصر وشاعر الحب النبوي ولاشك انه كان بين تيارين تيار دنيوي تتجاذبه السياسة والجاه والحياة وتيار اخروي تسيطر عليه عقائد الصوفية /

اما بالنسبة للنثر فقد كان الكتاب يتفنون فيه ومن ابرز من اهتم في هذا الامر (حجلة التلمساني) بالاضافة الى ما كتبه عبد الرحمان الثعالبي الى بعض تلاميذه في الجهاد

ضعف الانتاج اللغويلقد ضعف الانتاج اللغوي كالدراسات النحوية والقاموسية وكادت تقتصر على تعاليق سطحية في النحو والصرف ومن الذين اهتمو بهذه الدراسات (جميل زيان)(بن فائد الزواوي) ومن نظمه ارجوزة في النحو ، بالاضافة الى اعمال اخرى في الفقه والتفسير .

المحاضرة الرابعة تاريخ الجزائر الثقافي خلال العهد العثماني

انتشار حركة التأليف. ماهو الانتاج التاريخي في العهد العثماني؟ وماهو المجال الذي كتبت فيه بكثرة؟ ولماذا؟

نحاول الاجابة على هذه الاسئلة من خلال نماذج جزائرية مثل احمد المقري وابن الفكون ابوراس الناصري وغيرهم

أ/ احمد المقري يبدو من حياة اللااستقرار التي عاشها المقري انه كان رافضا للسلطة العثمانية التي كانت موجودة في وطنه الاصلي تلمسان ورفض الاحتلال الاسباني الذي كان جاثما على وهران

لقد الف المقري في شتى العلوم في العقيدة وعلوم القران والحديث واللغة والنحو والادب والتاريخ والتراجم ومن اشهر مؤلفاته (ازهار الرياض) يتحدث فيه عن سقوط غرناطة في يد العدو الاسباني، بالاضافة الى كتاب (نفخ الطيب) وهو كتاب موسوعي لانه صور لنا الحياة السياسية خاصة مأساة الاندلس والهجرة الاندلسية الى مناطق المغرب والحياة (الاجتماعية، والاقتصادية، والادبية، والعلمية) وقد عد (المقري اخر اعلام الثقافة العربية الاسلامية الذين فرضو وجودهم بالمغرب والمشرق .

تبين لنا من خلال مؤلف احمد المقري انه حاول ان يؤرخ للامة حينها وليس للمغرب العربي فحسب فدون مظاهر حضارة العرب في الاندلس واولى للعلماء بالاهتمام كركائز للامة وابراز اهميتهم في المجتمع .

ب/ عبد الكريم الفكون ينطلق بن الفكون من مقولة " من اعان ظالما سلطه الله عليه" فهو من حارب الظلم بقلمه ودروسه وقد كان يرى ان مهمة رجل العلم بعيدة عن السياسة ولا يرى ان العلم يخدم السياسة فقد كان الفكون ضد الحكام الذين يتقربون الى الحكام ، كما حارب ايضا الاولياء والدراويش الذين جعلوا نفسهم في خدمة الحكام .

ان من اهم ما الفه عبد الكريم الفكون هو (منشور الهدايا) يتكون من اربع فصول

الفصل الاول خاص بالعلماء والمصلحين المقتدى بهم مثل (عمر الوزان ، الاوراسي)
الفصل الثاني لمن تولو المنصب الشرعي وهم غير اهل له ويسميهم باشباه العلماء
الفصل الثالث لمن ادعى الولاية ووصفهم بالدجاجلة والكذابين
الفصل الرابع يذكر اخوان عصره وعلى راسهم احمد المقري
يضم (منشور الهدايا) معلومات مهمة في الحياة الثقافية والاجتماعية وخاصة في الجزائر كالواقع الثقافي والحياة الدينية وطرق التدريس والزوايا وموقف السلطة من العلماء .

خلاصة يعتبر ابن الفكون ناقدا لعصره وبالتحديد مجتمعه وان لم يغيره فنجده يحرم ويعظ ويذم كما اهتم بالواقع الداخل .

ابوراس الناصري من اهم ما الفه (عجائب الاسفار ولطائف الاخبار) تطرق الناصري في هذا المؤلف الى فتح وهران حيث ذكر الصراع العثماني – الاسباني وايضا المحاولات الاولى لتحرير وهران وفشل ملك المغرب مولاي في غزوها

كما عرض الناصري قصائد تحريضية خاصة حول تاريخ الاسبان واسباب احتلالهم لسواحل المغرب اين يستحضر مأساة الاندلس بتفاصيلها ثم يخلص الى تحرير وهران

احمد بن سحنون الراشدي كان مؤرخا ومنشغلا بقضايا الامة ومن مؤرخي الثورة الفرنسية وهنا فالثورة لم تشغل الراي العام والخاص في الشرق فحسب بل كذلك في المغرب العربي مما يجسد مدى الاحساس والشعور الجماعي المشترك الذي كان يجمع المسلمين شرقا وغربا

ابن العنابي وهو مفتي جزائري الف كتاب مهم عنوانه (السعي المحمود في نظام الجنود) والذي يشكل منعرجا خطيرا في لقاء الحضارتين الاسلامية والاوربية وقد عاصر هو الاخر الثورة الفرنسية وما نتج عنها من احداث مست جوانب عديدة من الحضارة الاسلامية فقد اراد بذلك ان يصرخ في ارجاء الامة الاسلامية لتجديد قوتها والاستعداد للجهاد الحق على غرار ماكان عليه الجهاد زمن الانتصارات الباهرة وكان العنابي يسوق حججا من الايات الكريمة والاحاديث الشريفة واراء المجتهدين من ائمة الاسلام ليبرهن ان دعوته نابعة من الكتاب والسنة .

ان نموذج ابن العنابي كمؤرخ واع وبصير بواقع حال الامة فاننا نستطيع ان نعتبره من العلماء القلائل في المغرب العربي الذين تنبهوا الى التباعد الحاصل في المستوى الحضاري بين قوة المسيحيين الناهضة وقوة المسلمين المتراجعة فحاول ان يبدي رؤية تجديدية اصلاحية لاهم ركيزة في صرح وقوة الامة وهي القوة العسكرية واعتبره العمود الفقري لقيام اركان الامة واستعادة امجادها

لقد حاول هؤلاء ان يبحثو عن الوسائل التي توقظ الامة من غفلتها وينفخو فيها من روح الغيرة عن الانفس والحرمات لاستنهاض الهمم للجهاد ونفض غبار الذل والهوان واصلاح شان الامة الاسلامية

خير الدين التونسي لقد طرح هذا الاخير اشكالية التخلف في العالم الاسلامي في كتابه الذي اشتهر لحظة اصداره وهو كتاب (اقوم المسالك في احوال الممالك) وترجمه الى عدة لغات حيث وصل صداه الى اقصى العالم الاسلامي واوربا

يعتبر خير الدين التونسي من ابرز رجال التجديد واليقضة في المغرب العربي نظرا لمساعيه في تكريس مبادئ الحرية والشورى والدعوة الى اصلاح اساليب الحكم وكان التونسي من الذين حاولو المزج بين ما عند اوربا من اساليب وتقنية وما عند

المسلمين من مبادئ واسس المدنية مع التاكد على ضرورة الغاء الحكم المطلق الذي خرب الامم

من خلال هذا نلاحظ بجلاء كيف كانت الاحداث السياسية الكبرى وربما المصيرية للامة تؤثر وتوجه بشكل كبير في حركة التاليف التاريخي للمؤرخين المغاربيين كما كان بمثابة القلب النابض للامة والمعبر عن الام وامال امته فجاءت كتاباتهم في هذا الشان

لقد كثرت حركة التاليف خلال العهد العثماني في القضايا ذات البعد المحلي والوطنى في الدول المغاربية الثلاث كونها كانت تمثل دولا مركزية ،

ان اهم الاحداث المحلية التي هيمنت على الكتابات التاريخية في المؤلفات المصدرية في الجزائر نجد حدث فتح وهران ، فقد كان مثلا تاليف كتاب (التحفة المرضية في الدولة البكداشية) لصاحبه ابن ميمون الجزائري يحتوى على ستة عشر مقامة مرصعة بابيات شعرية تمجد الباي محمد بكداش وانجازاته الخالدة خاصة فيما يتعلق بفتح وهران كما الف الشيخ محمد ابن احمد الحلفاوي مفتي تلمسان بيتا قسمه الى فصول فخصص الفصل الاول في عرض دولة محمد بكداش اما الفصول الاخرى فذكر فيهااخبار تجهيز الجيش الجزائري وسير المعركة ونتائجها

لقد الهب حادث فتح وهران حماسة النخبة المثقفة والباي محمد الكبير الذي قام بحركة علمية رائدة حيث فتح مجال هام للحركة العلمية وكذلك المؤرخ ابن رزفة كتب عن فتح وهران بدءا من الحصار حتى الاستلاء النهائي على وهران

ان هذا النوع من الاحداث كانت تلهب حماسة العامة والخاصة من العلماء والمؤرخين الا ان المؤرخين كانوا يسارعون لجمع اخبارها وتفاصيلها لتدوينها وتسجيل بطولاتها ووقائعها كجزء من الواجب لبث روح التضامن والجهاد لاخراج العدو من البلاد او دفع عدوانه واطماعه

لقد اهتم المسلمون خلال القرن الثامن عشر بهذا الفن من التاليف ودونو ذلك شعرا ونثرا او هما معا كما كتبوا عن العلماء الذين اجتمعوا اليهم واخذوا عنهم العلم

خلاصة عامة يمكن القول انه هذه المصادر قد ارخت للعلماء اكثر من تاريخها للحكام فالمقري يرى بان العالم هو محور الاحداث والفكون يرى بان الجهاد بالقلم والوعظ قد يصلح المجتمع الذي افسدته السياسة ولقد ركزت هذه المؤلفات على قضايا عصرها السياسية ثم الاجتماعية / وقد سجلنا عدم استقرار المؤرخين في محيطهم ورفضهم له وعادة ما كانوا يعبرون عن هذا الرفض بالهجرة او العزلة .

المحاضرة الخامسة

العلم والعلماء في الجزائر خلال الفترة العثمانية

ترى معظم الدراسات الاجنبية ان الجزائر خلال العه العثماني كانت تفتقر الى مظاهر التحضر والتمدن والتي نفهم من خلالها عدم الاهتمام بالعلوم والفنون كون المجتمع الجزائري خلال تلك الحقبة كان مجتمعا عسكريا في فكره واعماله لذلك كان لابد من دراسة هذا المجتمع بالوقوف على مسار العلوم والفنون اللذان يعتبران وجه من وجوه الثقافة ووسيلة من وسائل الانتاج الفكري الذي عرفته الجزائر خلال العهد العثماني وقد شملت هذه العلوم ميادين متعددة اهمها

العلوم اللسانية او علوم اللغة كان التاليف في علم اللغة المحض محدودا وحكرا على القليل من العلماء امثال (محمد بدوي الجزائري)غير ان التاليف زالاعتناء بالنحو قد اخذ نصيبا طيبا حيث الف (قاسم بن عبد الله)كتاب سماه شرح في (النحو) وهو يختص بقواعد الاعراب والتفصيل فيه ويبدو ان صاحبه كان متاثرا الى حد كبير (بسبويه à كما ظهرت مدرسة هامة في النحو الامر الذي شد انتباه الورتلاني ذكره في رحلته قائلا " ان النحو كان يعتنى به هناك الكبير والصغير واشتهر به اشتهارا بينا "

لقد اسهم الجزائريون في العهد العثماني في ميدان البيان والمعاني حيث قام الثعالبي بشرح قصيدة (الحلي)شرحا بلاغيا اما ما يتعلق بالعروض فانها كانت قليلة جدا منها شرح سعيد قدورة على (الرامزة الشافية في علم العروض والقافية) لابي الجيش المغربي

لقد كانت الشروح الادبية والقصص التي يتميز بها الادب الجزائري خلال العهد العثماني تتلقى الكثير من الصعوبات اهمها

سيادة اللغة العربية في الاوساط الرسمية ومزاحمة اللغات الاوربية وبعض اللهجات المحلية التي كانت تعيق حركة اللغة العربية

عدم تذوق الحكام للادب نظرا لاختلاف ثقافاتهم ولغاتهم مما ادى الى عدم تشجيع الادباء والشعراء

هجرة العلماء والادباء نحو المشرق نتيجة لعدة ظروف منها سياسية

لقد عاشت الجزائر في فترة العهد العثماني العديد من الشروحات الادبية اهمها (شرح الاعمال الصوفية والفقهية) وشرح (الاعمال الادبية بوجه خاص) مثلا شرح احمد بن سحنون الراشدي على قصيدة العقيقة كذلك شرح (نظم الجواهر في سلك اهل البصائر)

لقد كانت الشروح الادبية بمثابة المتنفس الذي يعرض فيه الادباء ذوقهم الادبي والنقدي ومدى اطلاعهم على تاريخ الادب والحضارة بوجه عام

كذلك تعدد الخطب بين السياسة والعسكرية والدينية والاجتماعية فالخطب السياسية كانت قليلة جدا اذا لم ناقل نادرة اما الخطب الدينية كثيرة كصلاة الجمعة وصلاة العيدين وقد تذكر المصادر ان الادب الشعبي كان غنيا بالحكايات والقصص التاريخية البطولية او الملحمية ولكنها في معظمها شفوية ولم يدون منها الا القليل، اما الشعر فقد احتل المكانة الثانية في الادب العربي بعد العلوم الدينية ومن انواع الشعر نجد الشعر الديني الذي اختص بالمدائح الدينية منها (مدح الرسول ﷺ) واهمه ايضا وصف رسول الله واخلاقه وايامه وصحابته وايضا الشعر الصوفي لرجال الدين والمتصوفة اما الشعر السياسي فكان محدود ونستطيع حصره في الجهاد وايضا مدح الحكام طمعا في الرزق وطلبا للقرب واهمهم (محمد بن ميمون الجزائري)

العلوم النقلية والعقلية

أ/ العلوم النقلية يقصد بالعلوم الشرعية الدراسات القرانية كالتفسير ورواية الحديث وفقه العبادات والمعاملات والفتاوي وقد كثرت هذه الدراسات بين العلماء الجزائريين خلال العهد العثماني وسنحاول في هذا الصدد ان نتعرض الى بعض فروع العلوم الشرعية كتفسير ايات القران الكريم وتوضيح معانيها لادراك ابعادها واستنباط الاحكام الشرعية ويمكن ان نتناول التفسير من ناحيتين ناحية التدريس وناحية التاليف اما تدريس التفسير فقد كان شائعا بين العلماء وربما يكون هؤلاء قد تناولو التفسير في مدارس التي اخذو بها دروسهم كالشيخ (ابوراس الناصر) الذي اجتمع في مجلسه حوالي اربع مائة طالب

اما التفسير تاليفا فالخوض فيه قليل فرغم شهرة مدرسة تلمسان العلمية الا انها لم تقدم مفسرين للقران الكريم فحتى العلماء المعروفين امثال احمد الونشريسي لا يعرف عنه التاليف في التفسير ومن الذين الفوا في التفسير (ابوراس) و (محمد الزجاي)

لقد اشتهر الجزائريون بتدريس القران اكثر مما اشتهرو بالتاليف بالاضافة الى هذا اهتمامهم بالحديث فقد اعتمدوا على الحفظ وعنايتهم بصحيح البخاري الذي كتبوا عليه الشروح وبلغ عند بعضهم مبلغ القداسة ومن العلماء الذين برعوا في الحديث (عبد الكريم الفكون) و(ابن العنابي)و (المقري)

عندما نتحدث عن الانتاج الفقهي في الجزائر فمن الطبيعي اننا سنركز على الفقه المالكي كونه المذهب المتبع بالجزائر ولكن منذ مجيئ العثمانيين انتشر المذهب الحنفي وظهر علماء كتبوا دروسا والفوا قواعد الامام ابي حنيفة

بالاضافة الى هذا فقد ترك علماء الجزائر عدة تاليف في الفتاوى والفرائض وغيرها من القضايا التي تمس الجوانب الدينية

كانت الثقافة الدينية هي الثقافة السائدة بالجزائر خلال العهد العثماني مما ادى الى انتشار ظاهرة التصوف وسيطرتها على توجيه مسار الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية وذلك بتشجيع من الحكام فكثر الانتاج في هذا الميدان وتنوعت الكتب التي تتناول التصوف كالاذكار والمواعظ والحكم والشروح الخاصة بالقصائد الصوفية والمدائح النبوية ولعل عبد الرحمان الثعالبي والحوضي وغيرهما مصدرا مهما للتاليف في التصوف

لقد شملت التاليف في التصوف المواعظ والادعية وغيرها من المواد الصوفية التي اعتنى الزهاد المتصوفة بها للتقرب من الله

اما في المواعظ فقد كثرت التاليف كتاليف (ابن عزوز) الذي سماه (اظهار البدع) وقد نادى فيه بنبذ البدع والعودة الى الكتاب والسنة اذ يقول " ان البدع في هذا الزمان لانهاية لها وكل بدعة عملت فرقة وافترقت بهذه الامة الى اثنين وسبعون فرقة كلهم ظالين مضلين يدعون الى النار " وعلى م يبدو فان ابن عزوز كان ساخطا على اشباه الصوفية التي انحرفت عن الشريعة واتبعت البدعة .

ب/ العلوم العقلية

اذا عدنا الى دراسة الانتاج العلمي خلال العهد العثماني وجدنا منه كمية ضئيلة بالقياس مع ماعرفه القرن التاسع للهجري .فبالنسبة للحساب رغم كونه علم يعتمد على الموهبة الا اننا نجد ان هذا العلم يكاد يختفي من الساحة الفكرية لولا بعض الاعمال ، ويعد (بن حمادوش) من الذين اهتموا بالحساب الا انه لم يخصه بالتاليف. اما بخصوص الهندسة لم نعثر على وثيقة تؤكد اشتغال الجزائريين بهذا العلم الا ما ورد في رحلة (ابن حمادوش) عندما اشار ان له تاليف في المساحة والهندسة بعنوان (فتح المجيب في علم التكعيب) .

علم الفلك يعتبر علم الفلك من العلوم العقلية التي خصها العلماء بالدراسة والتاليف خلال العهد العثماني . ويظهر هذا في حفظ تراث القرن التاسع منها علم الاسطرلاب (للحباك) كما ظهرت عدة وجوه اهتمت بهذا العلم امثال (عبد الرحمان الاخضري) الذي وضع نظما سماه (السراج في علم الفلك) (معرفة الفصول ، تعاقب الليل والنهار ...)

الطب لم يلق العناية اللائقة به خلال العهد العثماني ربما لانصراف بعض العلماء عنه لدراسة العلوم النقلية او لسيطرة فكرة القضاء والقدر على العقول ، واتجاه البعض الاخر التداوي بالاعشاب الطبيعية ، هذا مادفع بالرحالة الاوربيين الى الجزء في الكثير من المرات انه لم يكن للجزائر اطباء ومعظم الادوية كانت تقليدية مثلا كانوا يتغلبون على الحمى ببنات (الشندقورة) والتورم بالحناء والجدري بالعسل .

ولكن في مقابل هذا نحن لا ننفي المبادرات الطبية من قبل بعض العلماء بهذا العلم ، فتجد (عبد الرزاق بن حمادوش) من الذين درسو والفوا الطب من خلال كتابه (المجوهر

المكنون من بحر القانون). ويعتبر ابن غزوز المراكشي من الذين اتقنوا الطب من خلال كتابه (ذهاب الكسوف) حصص فيه الباب الاول للطب التجريبي والباب الثاني للطب النفسي الروحاني

الكيمياء لم يعد لهذا العلم اهمية عند العلماء حيث اصبح عملا يهرب منه العلماء ولعل هذا راجع الى عدة اسباب

انصراف العلماء والطلبة الى دراسة علوم الادب والتصوف

عدم وجود اساتذة اخصاء في هذا المجال

علم المنطق لم تكن هناك مساهمة فعالة في هذا المجال حيث لا يظهر الا انتاج ضئيل لبعض العلماء امثال (عبد الكريم المغيلي) ولعل هذا يعود الى امرين

صعوبة علم المنطق الذي يحتاج الى الاطلاع الواسع

طغيان علم التصوف واعتبار المنطق من بين علوم الظلم

وبذلك ظلت قيمة علم المنطق مجهوله مقارنة بالعلوم الاخرى ومن درس المنطق واشتغل به (سعيد قدورة)

علم التاريخ كانت العناية به ضعيفة نظرا لسيطرت التصوف والروح الدينية السلبية على هذا العلم . ولم يعرف تطورا الا خلال القرن الثاني عشر . حيث انكب العلماء على الالمام بتراث الاولين والتاليف فيه

. غير ان العمل في هذا العلم اقتصر على التراجم والرحلات . ولم يكتب واحد منهم تاريخا عاما للجزائر وهذا راجع لعدة اسباب

المؤرخ كان يعيش تحت ضغوطات سياسية

هيمنة الثقافة الجافة على علم التاريخ (النظرة القديمة للتاريخ من كونه تاريخ امراء وملوك) ولكن رغم هذا فقد تعددت التآليف بمختلف وجوهه في السيرة النبوية . فما قيل من شعر في المدائح النبوية هي جزء من تاريخ الرسول . اما عن المقري نجد كتاب (نفح الطيب) الذي يتناول جوانب هامة من تاريخ الاندلس . كما توجد عدة تآليف تعرض لاهم الاحداث التي عرفتها وهران تحت سيطرة الاسبان .

المصادر والمراجع

أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الخامس ، دار الغرب الاسلامي ط بيروت لبنان

محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال) ط" الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1982

مختاري حساني (تاريخ الدولة الزيانية) ج ط دار الحضارة للطبعة النشر والتوزيع الجزائر

عبد الرحمان الجيلالي تاريخ الجزائر العام ج دار الثقافة بيروت 832 19 2

محمد نسيب زوايا العلم والقران بالجزائر دار الفكر دمشق الجزائر (د- ت)